مقدمة

الاستبداد بالرأى . . . . والهزيمة

عندما يتأمل المؤرخون وخبراء الشئون العسكرية فى جميع أنحاء العالم فى المشكلات الاستراتيجية التى انبثقت عن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) - فإنهم قد يتفقون أو يختلفون قليلاً أو كثيراً ، ولا سيما بشأن الأسباب التى أدت إلى أن تخسر ألمانيا النازية هذه الحرب ، وخاصة أنها ظلت متفوقة فى معاركها منذ البداية حتى قرب النهاية بيد أنهم يتفقون تمام الاتفاق على أمر واحد هو أن من تلك الأسباب ، أو ربما السبب الرئيس للهزيمة الألمانية – إنما يرجع إلى أن أدولف هتلر مستشار الرايخ الثالث قد فرض وجهات نظره الشخصية ، وهو الذى لا يرقى فى ثقافته العسكرية إلى حد التخطيط للحروب أو العلم بالجوانب المتعددة للنواحى الاستراتيجية أو التكتيكية - فرضها على هيئة أركان الحرب الألمانية .

والواقع أن هتلر كان هو الذى يرسم بنفسه أساليب قيادة العمليات التى تقوم بها القوات البرية ، فلما شاءت المصادفات المجردة أن تكتسح هذه القوات جيوش دول بأكملها فى أوقات اعتبرت قياسية فى الغزو العسكرى – إذا به يتيه غروراً ، ويتصور أنه أكثر براعة وعلماً من أساتذة الحرب ، وراح يغلب رأيه على آرائهم ، ويعدل تبعاً لما كان يسميه بإلهام الزعامة فى أى خطة عسكرية يضعها خبراؤه من الجنرالات العظام .

ولم يقتصر تغليب رأى هتلر على كل ما يتعلق بإدارة المعارك البرية ، بل إنه تجاوز ذلك إلى التدخل فى الحرب فى البحار ، وهى التى لم يكن يفقه فيها شيئاً على الإطلاق .

والأكثر من ذلك أنه لم يكن يأخذ قط بتقارير جنرالاته أو بما يسمونه فى العلوم العسكرية بتقديرات المواقف ، حتى من قبل نشوب الحرب فى عام ١٩٣٩ : ففى عام ١٩٣٦ على سبيل المثال – عندما قرر بمفرده أن يخرق معاهدة (فرساى) ويعيد تسليح إقليم رينانيا الذى كانت تلك المعاهدة تقضى بإبقائه منزوع السلاح بعد الحرب العالمية الأولى – فإن ضباطه العظام قد

حذروه صراحة من أن ذلك العمل من جانبه سوف يؤدى بالضرورة إلى رد فعل عسكرى من جانب حلفاء الغرب .

والحقيقة أنه لو أن فرنسا قامت فى ذلك الوقت بالذات بأى تحرك عسكرى ، لوقع الجيش الألمانى بأكمله فى موقف صعب للغاية ، إذ كان لايزال جيشاً ناشئاً ، لم يشتد ساعده بعد . ولكن لأن هذا التحرك لم يحدث لأسباب غير طبيعية ترجع إلى الأوضاع فى فرنسا وإن كان لا يمكن أن يهملها خبراء الاستراتيجية ، فإن مغامرة هتلر قد نجحت ، الأمر الذى بدأ يولد فى نفسه شعوراً غريباً بأنه يقرأ صفحات الغيب ، ويعرف أكثر مما يعرف هؤلاء الخبراء فيما يتعلق بردود الفعل التى تأتى من جانب الأعداء !

وتكرر الشىء نفسه عام ١٩٣٨ عندما عمدت ألمانيا الهتلرية إلى ضم إقليم السوديت إليها مقتطعة إياه من أراضى تشيكوسلوفاكيا ، وهو العمل الذى أدى إلى ما عرف تاريخيًّا باسم « لعبة البوكر فى ميونيخ » التى كسبها المستشار الألمانى برغم التوجس الذى أعلنه جنرالاته خوفاً من مغبتها . وقد تأكد بهذه اللعبة أنه هو الذى على حق ، وأنهم المخطئون .

وحتى فى شهر سبتمبر ١٩٣٩ عندما أصدر أدولف هتلر أمراً لقواته باجتياح بولندا ، وترتب على هذا الغزو دخول كل من بريطانيا وفرنسا الحرب ضد ألمانيا كما تنبأ بذلك الجنرالات الألمان ، فإن اشتباك قوات هاتين الدولتين مع جيوش هتلر لم يُؤد إلى النتائج التى تنبأ أولئك الجنرالات بأنها ستكون بمثابة الكارثة بالنسبة لألمانيا :

ذلك أن الجيش البولندى سرعان ما انهار وتفكك ، على حين بدأت على الناحية الأخرى من الجبهة ، حرب غريبة لم يسبق لها مثيل ، فلم تقع ألمانيا – كما كان يقول جنرالات هتلر – بين نارين . أى أنها لم تضطر إلى الحرب فى جبهتين فى وقت واحد ، إذ بادر هتلر إلى تسوية حسابه تماماً مع بولندا . ثم استدار ناحية فرنسا التى جثت على ركبتيها أمامه خلال أشهر قليلة دون أن تبدى أى مقاومة جادة .

وهكذا ثبت مرة أخرى أن الهيئة العامة لأركان الحرب الألمانية قد أخطأت عندما قدرت بأكثر مما يجب القوة العسكرية الفرنسية ، ومرة أخرى تأكد أن الفوهرر على حق . ومع كل هذه المصادفات ، وخاصة فى مثل تلك الحقبة من الزمن التى انتشرت فيها شائعات تقول بتفوق الجنس الآرى على سائر أجناس الأرض ، أصبح من الأمور التى بدت طبيعية تماماً فضلاً عن أنها لم تثر أى نوع من الاعتراض أو السخرية أن يزعم المستشار الألمانى أنه (سيد

الحرب) ، وأنه مبعوث العناية الإلهية الذى سوف يجلب لألمانيا النصر النهائى ، وينزل الهزيمة بأعدائها أجمعين .

ونتيجة لذلك انطلق هتلر يعربد فى جميع أرجاء أوربا ، وكأن القدر يمهد له لكى ينسج الحبل الذى يشنق به نفسه ، وإن كان ذلك قد جاء بعد وقت ليس بالقصير ؛ فلقد بدأ عام ١٩٤٠ وطالع ألمانيا فى أوج سعده ؛ إذ لم تجد أدنى صعوبة فى غزو كل من الدانمرك والنرويج فى شهر أبريل ، بل بغير أن تطلق القوات الألمانية تقريباً طلقة رصاص واحدة .

وقد جرت هذه العملية بدورها ضد رأى الخبراء والمتخصصين ، الذين لم يكونوا فى هذه المرة من علماء إستراتيجية المعارك البرية ؛ وإنما كانوا من خبراء البحرية : ففى ٩ من مارس ١٩٤٠ بعث الأميرال (رايدر) تقريراً إلى هتلر قال فيه : « إن هذه العملية تناقض مبادئ الحرب كافة فى البحار ؛ فليست لنا السيطرة فى البحر ، بل إننا إذا شرعنا فى العملية فإننا سنعمل فى مواجهة أسطول بحرى متفوق على أسطولنا عدة مرات » .

وبدأت عملية إنزال القوات الألمانية فى النرويج يوم ٩ من أبريل ، وانتهت فى اليوم الثانى عشر منه محققة نجاحاً كاملاً : فقد تجمع الأسطول الألمانى فى قاعدته فى « فيلهمشهافن » بمساندة من سلاح الطيران متخلصاً بذلك من الرقابة الإنجليزية ؛ مما جعله ينجز العملية بغير أن يفقد سوى عشر مدمرات وغواصة واحدة ، وهو ما لم يتجاوز الخسائر التى كانت متوقعة مسبقاً فى هذا المجال .

على أن البحرية الألمانية لم تستطع مع ذلك منع إجلاء القوات البريطانية عن « دنكرك » ؛ إذ جرى هذا الإجلاء بغير أن تتدخل ؛ لأنها كانت منهمكة فى أثناء ذلك بحماية خطوط مواصلاتها بين ألمانيا والنرويج . وقد كانت هذه الضرورة الحيوية للاستراتيجية النازية كذلك مما حمل هتلر على اتخاذ قرار معين ، اتضح فيما بعد أن كانت له آثار مدمرة بالنسبة للمستقبل ، وهذا القرار هو وقف العمل فى بناء حاملة الطائرات الألمانية (الوحيدة) التى كانت حين ذاك فى مصانع بناء السفن ، وأطلق عليها اسم « جراف زبلن » .

ثم كان أول فشل حقيق لهتلر . وكان ذلك فى العملية التى وضع لها اسم رمزى هو « سيلوين » ومعناه سبع البحر ، وهى عملية غزو الجزيرة البريطانية بعد أن لم يبق من هدف عاجل أمام الفوهرر عقب سقوط فرنسا سوى ذلك .

فلكى يحقق هتلر هذا الهدف لم يلبث أن اصطدم بعدد كبير من العقبات ، وكانت

أولى هذه العقبات اعتراض الأميرال الألمانى « رايدر » على المشروع من أساسه . فقد كان يرى أن غزو الجزر البريطانية غير ممكن إلا إذا كانت لألمانيا سيادة جوية كاملة ومطلقة . وإلا إذا تم بناء عدد كاف من سفن نقل الجنود .

ومن المعروف أن معركة « سبع البحر » أو معركة بريطانيا قد كسبها ونستون تشرشل رئيس وزراء إنجلترا فى ذلك العهد بفضل سلاح الطيران الملكى البريطانى ، وسوف نتحدث عن هذه المعركة بشىء من التفصيل فى مكان آخر من هذا الكتاب . على أن المهم فى الأمر أن خسارة هتلر لهذه المعركة جعلت من المستحيل إنجاز حلمه الضخم باحتلال بريطانيا ؛ إذ إنه ما إن حل يوم ١٧ من سبتمبر ١٩٤٠ حتى بات التفوق الجوى الألمانى بعيداً كل البعد عن التحقيق . فضلاً عن أن سوء حالة المناخ قد اضطرت الفوهرر إلى إلغاء مشروع « سبع البحر » نهائيًّا . وإن تظاهر بأنه قد أجله إلى موعد آخر

* * *

على أن هذا الفشل الأول فى الإستراتيجية الهتلرية كان يمكن تعويضه ، لو أنه نزل على آراء جنرالاته المتخصصين ، وانتهج سياسة بحرية تدخل فى الاعتبار الحقائق الفعلية لفنون الحروب .

بل إن هتلر قد تمادى فى غروره ، ونحى جانباً كل ما أشار به عليه خبراء هيئة الأركان ، وبصفة خاصة ما أوصى به الأميرال البحرى العظيم (رايدر) الذين كانوا جميعا لايزالون يرون أن الهدف الأول الذى يتعين تحقيقه هو هزيمة بريطانيا .

وتتلخص توصية رايدر فى ضرورة إغلاق البحر الأبيض المتوسط بوصفه المحور الذى تقوم عليه الإمبراطورية البريطانية قبل أن يجىء الوقت الذى تصبح فيه الولايات المتحدة الأمريكية فى حالة تأهب للاشتراك فى الحرب ، ومن ثم إنقاذ بريطانيا .

ورفض الفوهرر كل هذه النصائح . ولم يلبث أن أصدر يوم ١٨ من ديسمبر ١٩٤٠ قراره الشهير الذى حمل رقم ٢١ ، والذى يقضى بالبدء فى تنفيذ عملية « ذى اللحية الحمراء » . أى غزو روسيا .

وابتداء من عام ١٩٤١ استدار هتلر بكل طاقات ألمانيا لإنجاز مشروع « ذى اللحية الحمراء » متخلياً فى ذلك عن تنمية البحرية التى رأى أن ليس لها دور فى تلك الحرب ، فغفل عن أهمية الحرب الأخرى التى سوف تنشب قريباً فوق مياه البحار .

وقد كان هذا الاعتداد بالنفس الذى بلغ حد الغرور الأعمى من جانب هتلر مضافاً إلى استخفافه بآراء الجنرالات الألمان العظام ، واعتماده على ضربات الحظ الذى وفق فيها فى بداية النزاع بمحض الصدفة ، هو الذى أضاع الرايخ الثالث ، وأنزل به هذه الهزيمة التى لم تكن متوقعة

موسى بدوى

obeikandl.com

obeikandl.com

تقديم الكتاب

بقلم

العقيد (ا . ح) محمد فريد حجاج

هذا كتاب عن الفنون الحربية والنزعة العسكرية بصفة عامة ، ويدور الجانب الأكبر منه بصفة خاصة على تلك النزعة الألمانية التى تعرف باسم العسكرية البروسية ، والتى لم تنشأ بين يوم وليلة ، ولكنها بدأت فى مملكة بروسيا فى منتصف القرن السابع عشر ، فكانت النواة التى قام عليها بعد ذلك الرايخ الألمانى :

فى حوالى عام ١٦٤٠ بدأت تتكون مع قيام الجيش البروسى الناشئ هيئةٌ تضم الأركان العامة لهذا الجيش ، فضمت فى البداية أقساماً لعمليات الإمداد والتموين ، والاحتياجات الهندسية ، والإشراف على الطرق ، واختيار مواقع المعسكرات ، وتنظيم القلاع والحصون .

وهناك أحد الضباط البروسيين اقترن اسمه وهذه الهيئة منذ عام ١٦٥٧ ، هو اللفتنانت كولونيل (بوليوم) بوصفه أهم العسكريين الذين عملوا على تقويتها ودعمها ؛ مما ساعد على أن تدخل تعديلات جمة على الجيش البروسى وتقاليده .

وقد أخذت الهيئة والجيش معاً يتطوران فى عهد فردريك وليم الأول ، ثم فى عهد فردريك الأكبر إلى أن كانت الثورة الفرنسية ، فكان لها بدورها تأثير عميق على الفكر العسكرى وضباط الجيش البروسى .

وقد ظل الأمر كذلك حتى عام ١٨٠١ عندما طلب (هاودشار نهورست) ، وهو ضابط ألمانى له أثر كبير فى تطوير النظم العسكرية فى الجيش – طلب من ملك بروسيا الانضمام إلى صفوفه ، بعد أن أصبح أهم هيئة فى ألمانيا كلها .

ويعتبر النصف الأول من القرن التاسع عشر مرحلة هامة من مراحل المعارك العسكرية التى نشبت فى أوربا أفادت كثيراً فى تكوين فكر الجيش البروسى . وتولى بعد ذلك المناصب الهامة فى هذا الجيش رجل له شخصيته المؤثرة هو الماجور جنرال فون بوين ، وظل يرتقى فى هذه

المناصب حتى أصبح وزيراً للحربية . وفى أيامه أصبحت طبقة الضباط البروسيين من أهم العوامل التى ساعدت على إرساء قواعد العسكرية النموذجية .

ثم كان لظهور (كلاوز فيتز) ولآرائه ما تدعمت به العسكرية الألمانية ؛ إذ عالج جوهر التفوق فى الحروب الحديثة ، وتحدث عن اتخاذ القرار بخوض الحرب ، والاستيلاء على زمام المبادأة بأسرع الوسائل وأعنفها وتحقيق الهدف من الحرب بالتوغل العميق فى كيان دولة العدو .

والواقع أن هذه المبادئ والنظريات كانت ثورة فى المجال العسكرى البروسى . ذلك أن الحرب لم تعد فى القرن التاسع عشر حرب ملاحظة ، ولكنها حوب قرار وحكم وإبادة . ويقول (كلاوز فيتز) فى ذلك : «كلما كانت دوافع الحرب أكثر جلالاً وأسمى هدفاً – تملك الناس جميعاً الحماس لها ، وكلما زاد التوتر الذى يسبق الحرب اقتربت الحرب من قوتها الجوهرية ، وأصبح الغرض منها هو تدمير العدو . وكذلك تتخذ الحرب صفتها العسكرية البحتة كلما قلت أو توارت العوامل السياسية التى تدفع إليها عن الأنظار» . وهو يقول كذلك مخاطباً ولى العهد : «افتح قلبك يا سيدى لمثل هذا الشعور . وكن شجاعاً وذكيًّا فى خططك ، وقويًّا عنيداً ومصمماً فى تنفيذها ، فإذا ساءت الأمور فصمم على الموت مع حفاظك على الشرف ! » .

ولقد كان «(كلاوزفيتز) رائعاً فى تعريف الحرب ؛ إذ قال – «إن الحرب لا تخص ميدان العلوم والفنون ، ولكنها تخص الوجود الاجتماعى : فهى نزاع بين المصالح الكبرى يسويه الدم ، وهى بذلك فقط تخالف النزاعات الأخرى» . ويلح (كلاوزفيتز) على أنه لا ينبغى أبداً لإدارة الحرب أن تصبح غريبة عن السياسة . بل من الواجب أن تتطابقا . ولو أن هذا ينبغى ألا ينسينا أن إدارة العمليات تبقى واحدة من مسئوليات المجال العسكرى ، وأن أى تدخل للسياسة على هذا المستوى يشكل خطيئة حقيقية فى التفكير ، وقد يقود إلى نتائج أليمة .

وهو يرى أن للحكومة أن تحدد خطة الحرب بوصفها جهازاً سياسيًّا أعلى ، وأن على القائد العام أن يعطى رأيه ، لكى يكون الحكام على علم بالنتائج العسكرية التى تترتب على قراراتهم . وحتى إذا كان دوره فى هذا المستوى دوراً استشاريًّا فإنه ينبغى على العكس ألا يشاركه أحد فى سلطته عندما يتعلق الأمر بتحديد العمليات التى يتعين الشروع فيها ، أو الخطة التى تدخل هذه العمليات فى إطارها .

وقد نكون غير مبالغين إذا ذكرنا أن آراء (كلاوزفيتز) كان لها أثرها الكبير فى وضع أسس

العسكرية الألمانية . وتكوين طبقة من القادة الممتازين الذين تولوا إخراج جيش نموذجى يمثل التقاليد البروسية وصفه بقوله : « إنه جيش يحافظ على تشكيلاته تحت النيران الحارقة والمدمرة ، ولا ينساق مع المخاوف الوهمية ، ويعرف كيف يقاوم أعنف الظروف ، ويفخر بضحاياه ، ويظل حتى وقت الهزيمة محتفظاً بمبدأ الطاعة لرؤسائه ، والاحترام لهم ، والثقة فيهم ، ويؤمن أن إنهاك قواه البدنية نتيجة للحرمان والجهد المستمرين ، إنما هو والجهود التى يبذلها فى المعارك وسيلة للنصر . وليست لعنة كتبت على راياته ، إنه جيش تكفى فكرة إحراز المجد لأسلحته وقياداته ، لتذكيره بكل واجباته ، والعودة به إلى كل فضائله . إن مثل هذا الجيش مشبع حقًا بالروح الحربية » .

* * *

ولقد تكون الرايخ الألمانى خلال حكم وليم الأول ووزيره بسمارك . وعندما قامت الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا التى كانت مستعدة لها عمدت ألمانيا إلى تنفيذ الحرب الخاطفة ، فلم تمض سوى ستة أسابيع ، حتى انهزم أحد الجيوش الفرنسية الذى كان على رأسه الإمبراطور الفرنسى نفسه ، فاضطر إلى التسليم فى (سيدان) ؛ وكانت نتيجة هذه الحرب عقد صلح (فرانكفورت) عام ١٨٧١ ، ودفعت فرنسا بموجبه تعويضاً كبيراً لألمانيا ، إلى جانب نزولها عن الإلزاس واللورين .

ويرى بعض الباحثين أن تلك الحرب كانت من أسباب الحرب العالمية الأولى ، كما أنه ظهر خلالها عدد من القادة الألمان الذين وضعوا أسس التقاليد والفكر العسكرى التى كانت القاعدة التى قامت عليها العسكرية الألمانية فى النصف الأول من القرن العشرين ، ومن هؤلاء هلموت فون مولتكه الذى قال : ليس فى الحرب من رأس مال حقيقى لقائد إلا عزيمته ونشاطه . فمن المتعذر عليه أن يتكهن أو يتنبأ بالأوضاع ، وما الإستراتيجية سوى نظام يهدف إلى تحقيق غاية معينة ، وينبغى أن نحكم على قيمتها من واقع قدراتها على تحقيق هذه الغاية .

وقد ظهر قادة آخرون مثل (والدرسى) و(شيفلن) ، ثم مولتكه الابن ، واستمروا فى وضع لبنات الفكر والعسكرية الألمانية حتى قامت الحرب العالمية الأولى من عام ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ، وهى الحرب التى رغم ماصاحبتها من أحداث-وما أسفرت عنه من نهايات - فإنها لم تحدث فيها هزيمة كاملة لقوات ألمانيا .

والمتابع لهذه الحرب يستطيع أن يستنتج السير التاريخى للأحداث ، ولكن المهم أن الألمان

خرجوا منها وهم عاقدو العزم على الثأر من الحلفاء نتيجة لما فعلوه فى ألمانيا . ومن أجل ذلك عملت هيئة الأركان العامة الألمانية فى الفترة التى تلت هذه الحرب على المحافظة على القوات المسلحة بعيداً عن الصراع السياسى فى ألمانيا ، كما أن أعضاء هذه الهيئة ارتبطوا بعضهم وبعض بشعور متبادل بالعطف والثقافة ، وبرغم ما وجه إليها من اتهام بأنها أحد مراكز إثارة الحرب فقد ظلت محاطة بجو من الاحترام . ومن أسباب ذلك أن الجيش لم يكن قد قام بعد بمعركته الأخيرة ، فضلا عن أن الجبهة الألمانية لم تكن قد انهارت . وكان الذين وقعوا شروط التسليم هم السياسيون .

* * *

وبرغم أن معاهدة فرساى كانت تهدف أساساً إلى إضعاف النزعة العسكرية الألمانية فإن القيادة الألمانية نجحت فى المحافظة على قدرات هذه العسكرية ، فكانت نواة للقوات المسلحة النازية . بيد أن ما هو أهم من ذلك كان وضع الأسلوب الجديد للفكر العسكرى الألمانى فى خدمة القوات الجوية ، وسلاح المدرعات وأساليب قتالها ، واستخدام المشاة الميكانيكية ، وتنفيذ الحرب الخاطفة .

وكان وراء كل ذلك عدد كبير من القادة الألمان الذين برزوا فى الحرب العالمية الثانية ، وقادوا الجيوش الكبرى للرايخ الثالث . ومن هؤلاء : فون بلومبرج ، وفون ليب ، وفون بوك . وفون فالكنهاوزن ، وفون رونشتت ، وفون براوشيتش ، وفون كيسلرنج ، وفون فريتش ، وهالدر ، وجودريان ، وإرنست فون ووهم وغيرهم .

وقد عمدت هيئة الأركان الألمانية إلى تأمين مورد ثابت ومنتظم يمدها بالعناصر الممتازة من الضباط ، فنظمت لذلك اختبارات دورية تعقد فى المناطق العسكرية المختلفة تشمل الفنون العسكرية ، وعلوم السياسة ، والتاريخ ، والمعلومات العامة .

ومضت القيادة الألمانية فى تجهيز قواتها المسلحة فى سرية تامة ، حتى إذا كان ظهور هتلر على المسرح السياسى فى ألمانيا لم يجد صعوبة فى الاستفادة من هذه القوات . وكذلك من أولئك القادة . فلما تولى الحكم عام ١٩٣٣ بدأت مرحلة جديدة فى إعداد القوات الألمانية ، وإدخال الفلسفة النازية عليها .

ويتضمن هذا الكتاب ترجمة صادقة لحياة القادة الألمان العظام الذين تولوا قيادة قوات ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، فبرزوا فى المعارك الكثيرة الظافرة التى خاضوها ، كما أنه

يعرض أخطاء السياسة التى انتهجها النظام النازى ، وتدخل زعامته فى الأعمال العسكرية البحتة ؛ مما كان له أثره العميق فى الهزيمة التى حاقت فى نهاية الأمر بألمانيا ، وما نالها خلال ذلك من دمار ، وسقوط الرايخ الثالث .

وليس هناك من شك فى أن الكتاب إضافة ثرية الى المكتبة العربية بصفة عامة ، والفرع العسكرى بصفة خاصة .

obeikandl.com